

4. أنماط التغير الاجتماعي:

لقد اهتم علماء الاجتماع بالتحليل السوسيولوجي لظاهرة التغير الاجتماعي في الدول المتقدمة والنامية على السواء، وفي المجتمعات التقليدية والحديثة، وفي الريف والمدينة. وإذا كان التغير الاجتماعي كظاهرة ملزمة لحياة البشرية عرفتها المجتمعات قديماً وحديثاً، فإن عوامل حدوثها، ونتائجها وانعكاساتها تختلف باختلاف الزمان والمكان، وكذا الظروف الموجدة لهذا التغير، وقد لاحظ ابن خلدون قدّيماً ظاهرة التغير الاجتماعي، وذلك حينما قال: "إن أحوال العالم والأمم، عوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأعصار والأمسكار، فذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول"⁽¹⁾.

1. التغير الاجتماعي قديماً وحديثاً: هناك درجة اختلاف كبيرة بين التغير الاجتماعي في المجتمعات القديمة، والمجتمعات المعاصرة، ويرجع ذلك إلى عوامل ثقافية واقتصادية شهدتها المجتمعات الحديثة، غيرت من سلوكيات الأفراد وأنماط معيشتهم. ومن أبرز هذه العوامل ظهور الثورة الصناعية في أوروبا، وانتشار التصنيع، فانتقل المجتمع بفضل التطور العلمي والتكنولوجي والتصنيع من مجتمع تقليدي بسيط إلى مجتمع صناعي معقد كما بين ذلك دوركايم حينما بين في أولى مؤلفاته الرئيسية تقسيم العمل في المجتمع (1893)، حيث قدم تحليلات للتغير الاجتماعي قال فيه إن مرحلة التصنيع قد أدت إلى بروز نوع جديد من التضامن. ومن ثم وضع خططاً مميزة بين نوعين من التضامن هما التضامن الآلي والتضامن العضوي، وربط بينهما وبين تقسيم العمل في المجتمع⁽²⁾.

ويرى دوركايم أن الثقافات التقليدية التي ينخفض فيها مستوى تقسيم العمل تتميز بالتضامن الآلي، ويعود ذلك إلى كون أغلبية أعضاء المجتمع منخرطين في مهن متشابهة،

⁽¹⁾ عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة. دار الجبل، بيروت، بدون تاريخ نشر، ص 31.

⁽²⁾ أنتوني جيدنر، علم الاجتماع. مرجع سابق، ص 65.

وتربط بينهم تجربة مشتركة، واعتقادات مشتركة أيضاً. وتتسم هذه المعتقدات بقوة ضاغطة ثابتة، إذ تقوم الجماعة بإيقاع العقوبة بسرعة على من تسول له نفسه أن يتحدى طرائق الحياة التقليدية، وعلى هذا الأساس لن يكون ثمة مجال للفرد أن ينسق عن الجماعة، وهكذا يكون التضامن الآلي قائماً على الإجماع وتقارب المعتقدات. ولكن مع انتشار قوى التصنيع والتحضر قد أدت إلى التزايد في تقسيم العمل، مما ساهم في انهيار هذا الشكل من التضامن، حيث أن التخصص في المهام والتزايد في التفاوت الاجتماعي في المجتمعات الصناعية أدى بالمجتمع إلى الانتقال من حالة التجانس الاجتماعي إلى حالة أخرى تتسنم بعدم التجانس وانتقال المجتمع من التضامن الآلي (الميكانيكي) إلى التضامن العضوي، وحسب دوركايم فقد أدى هذا التحول الاجتماعي من الآلي إلى العضوي إلى بروز اضطرابات في أساليب الحياة التقليدية وفي القيم والمعتقدات الدينية وأنماط الحياة اليومية دون أن تطرح بدلاً منها قيماً جديدة وواضحة، وربط دوركايم بين هذه الأوضاع المتذكرة وبين ظهور حالة الضياع⁽¹⁾.

هذا الوضع الجديد الذي شهدته المجتمعات الغربية أفرز قيماً جديدة داخل المجتمع، وتغيرت الأوضاع الاجتماعية، وتغير نمط الحياة عند الأسر التي كانت في القرنين 17 و 18 عبارة عن وحدة انتاجية محلية، "حيث كان الانتاج يتم داخل المنزل، أو على الأرض المجاورة له، وكان أفراد الأسرة بما فيهم الأطفال يساهمون في العملية الانتاجية، ولكن بعد انتشار التصنيع والنظام الرأسمالي، انفصل المنزل عن مكان العمل"⁽²⁾، وتغير بناء الأسرة والكثير من العادات والتقاليد والقيم الأسرية.

وقد أدت الاختراعات التكنولوجية المتواصلة إلى تغير اجتماعي متواصل ومستمر في الاتجاهات الحياتية المختلفة، وأدت إلى ظهور نمط معيشي جديد في المجتمعات

⁽¹⁾ نفس المرجع السابق، ص 65.

⁽²⁾ أنتوني، جينز. "مقدمة نقدية في علم الاجتماع". ترجمة أحمد زايد وأخرون، [كتاب على الشبكة]. www.Kotobarabia.Com

الغربي، وأصبح التغير يسير بوتيرة متناسبة طردياً مع كثرة الابتكارات التكنولوجية والتجدد التقني الذي انتقلت بفضله المجتمعات من مرحلة البساطة إلى مرحلة التعقيد والتخصص الدقيق، ويبدو هذا بوضوح في المجتمعات الصناعية اليوم.

"ويشير مفهوم التصنيع إلى أنه عملية تطوير اقتصادي يعبأ في ظلها الجانب المتزايد من الموارد القومية من أجل تطوير الهيكل الاقتصادي الداخلي المجهز بتقنية حديثة وبقطاع تحويلي ديناميكي، يملك وينتج وسائل الانتاج وسلع الإستهلاك، والقادر على ضمان معدلات نمو عالية للإقتصاد، وتحقيق تقدم اقتصادي واجتماعي"⁽¹⁾.

وقد أدى التصنيع إلى تغيير النظام الاقتصادي حول العالم وانتشار الرأسمالية، غير أن ماكس فيبر (Max weber) يرى بأن روح الرأسمالية ليست حديثة النشأة، فهي وجدت عبر المراحل التاريخية في العصور القديمة والقرون الوسطى، وفي مجتمعات مختلفة كالصين ومصر، لكنها لم تعرف فيها نجاحاً متميزاً، مثل الذي عرفته في المجتمع الأوروبي الحديث، حيث دخل بفضل الرأسمالية إلى مرحلة تاريخية جديدة، حيث أدت إلى إعادة صياغة دول العالم إلى دول متقدمة وأخرى تعاني التخلف والتبعية، حيث أكد الدكتور علي بوعنانة أن "الرأسمالية كظاهرة تاريخية شكلت دول العالم الثالث، وساعد في تغلغل الرأسمالية في المجتمعات المتغيرات العلمية والتكنولوجية، التي أقامت علاقات إقتصادية، وبخاصة مع العالم الذي كان بصفة أساسية مصدراً للطاقة الرخيصة والمواد الأولية، مع احتفاظ هذه المناطق المختلفة في العالم بالأساليب التقليدية في التنظيم، أصبحت بصورة متزايدة تابعة للبلاد الصناعية، بالنسبة إلى نموها الاقتصادي والتكنولوجي"⁽²⁾.

وعموماً يميز الدكتور الدقس التغير الاجتماعي قديماً وحديثاً على النحو التالي⁽³⁾:

⁽¹⁾ محمد عبد المولى الدقس، مرجع سابق، ص 239.

⁽²⁾ علي بوعنانة، الشباب ومشكلاته الاجتماعية في المدن الحضرية . مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007 ، ص 85.

⁽³⁾ محمد عبد المولى الدقس، مرجع سابق، ص 65.

1. لقد أصبح التغير اليوم أسرع وأعمق من التغير قديماً، وذلك نتيجة للثورة التكنولوجية ووسائل الاتصال العديدة، وصار انتقال السمات الثقافية بين المجتمعات البعيدة أسرع من ذي قبل بأضعاف مضاعفة.

2. الترابط بين المتغيرات الحالية زماناً ومكاناً، حيث تقع في سلاسل متتابعة، ويتردد صداها في مجتمعات عديدة، بعكس التغير في القديم الذي كان يحدث بصورة منفصلة (متقطعة) تتبعه فترات هدوء من أجل إعادة البناء.

3. أصبح التغير اليوم متوقعاً في كل ظاهرة، وهو دلالة طبيعية، أي أن كل ظاهرة في المجتمع متوقعة تغيرها على خلاف التغير في السابق، حيث كانت ظاهرة التغير صعبة، وغير مستحبة لدى المجتمعات، فلا تتقبل التغيرات بسهولة، بعكس المجتمعات الحالية التي تأخذ التغير بشكل أسرع.

إن التحول الذي يعيشه المجتمع اليوم، أو ما يسمى بمجتمع ما بعد الحادثة هو ناتج عن التطور الكبير الذي يشهده الإعلام ووسائل الاتصال. "ويرى بعض المنظرين الحديثين وما بعد الحديثين أن ما يحكم في عالم اليوم هو وسائل الإعلام والاتصال والمستهلك الجماعي والمدينة الكبيرة والدولة البوليسية المهيمنة، والعقارات السكنية الواسعة والدولة الوطنية، كلها قد بدأت بالانحسار، بينما تتصاعد مستويات المرونة، والتتنوع والتباعد والحرراك والاتصال واللامركزية والتدويل، وفي تلك الأثناء تتعرض هوياتنا ومفهومنا لذاتها ومشاعرنا وموافقنا الذاتية لسلسلة من التحولات. إننا نمر في مرحلة انتقالية إلى عصر جديد"⁽¹⁾.

⁽¹⁾ أنتوني جينز، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص 717.

من خلال الطرح السابق نلاحظ أن ظاهرة التغير الاجتماعي تحدث في وقت قياسي وأسرع مما كانت عليه في المجتمعات القديمة، ويرجع ذلك إلى عامل أساسى وهو التطور التكنولوجي والتقني، وانتشار وسائل الإعلام والاتصال السريعة، مما ساهم في نقل السمات الثقافية بين المجتمعات البعيدة، غير أن الملاحظ هو هيمنة الدول الصناعية وعلى رأسها أمريكا على الإعلام العالمي وتقويقها في مجال الانتاج والنشر والتوزيع الإعلامي، مما دفع بالبعض إلى تسميتها بالامبرالية الإعلامية، ووفقاً لهذا المنظور فإننا نشهد اليوم قيام إمبراطورية ثقافية تبسط نفوذها على مختلف أرجاء العالم، وخاصة على المجتمعات النامية، والأقل نمواً، تعتبر هذه البلدان الأكثر اكتشافاً وتأثراً وتعرضاً لهذه الإمبراطورية الثقافية لأنها تفتقر إلى الموارد الكفيلة لمواجهة هذا الغزو الثقافي، والمحافظة على خصوصياتها وهويتها الثقافية، وهذا ما يطلق عليه بعصر العولمة أو الأمبركة، وذلك لأن أمريكا هي من تصنع العولمة وتصدرها لثقافات وشعوب الدول المستضعفة.

2. التغير بين المجتمع الحضري والمجتمع القروي: تنقسم المجتمعات البشرية إلى مجتمعات حضرية وهي التي تتركز في المدن، ومجتمعات ريفية، وهي التي تعيش في الأماكن والأراضي الزراعية. الواقع أن الاختلاف بين المجتمعات الحضرية والريفية لا يكمن في الواقع الجغرافي فحسب، بل الاختلاف الجوهرى يكمن في طبيعة العمل، ونمط المعيشة، والعادات والتقاليد والقيم والسلوك بشكل عام.

يتميز المجتمع الريفي بروح الجماعة، وقربة الدم، والانتماء إلى الأرض التي يحي فيها، والتي تمده بقوت يومه، "يمتاز النظام الأسري فيه بالعائلات الممتدة، التي تحمل في الغالب كنية واحدة، ويعود نسبها إلى جد واحد تستمد منه كنيتها. ولا تزال الأسر الريفية عبارة عن وحدة انتاجية اقتصادية واجتماعية، يعمل أفرادها معاً بما في ذلك النساء والأطفال، في سبيل تأمين معيشتهم"⁽¹⁾. وبفضل هذه القرابة والوحدة والتجانس تظهر مجموعة من القيم الروحية

⁽¹⁾ حليم برकات. المجتمع العربي المعاصر: بحث استطلاعي اجتماعي, 8، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2004، ص.82.

الجماعية كالتكافل، التضامن، ويمارس فيها الدين، والشيخ، ومؤسسات الضبط الأخرى غير الرسمية مثل العادات والتقاليد سلطتها كاملة في سبيل ضبط سلوكيات الأفراد، مما يجعل المجتمع سليماً، متماسكاً وتقل فيه المشكلات والانحرافات بوجه عام.

وعلى العكس من ذلك يتميز المجتمع الحضري، أو المدينة بنظام الأسرة النووية، والفردانية وهشاشة العلاقات الحميمية، والتخصص في العمل، وانتشار مظاهر التقى الاجتماعي وغياب التجانس وتراجع دور مؤسسات الضبط غير الرسمية حيث يقول جاك بيراك "... أما الوسط الحضري فيتميز بالقهقهة، وبالتصنع"⁽¹⁾، وتسقطب المدينة أعداد المهاجرين المتزايد من الريف وطالبي العمل، مما يجعلها تعيش في جو من التباين والتتواء الثقافي وانتشار الثقافات الفرعية التي تهدد بناء المجتمع واستقراره، كما يوضح ذلك الكاتب محفوظ سماتي بقوله: "... والجهود متوجهة خاصة نحو تحقيق الاندماج بين أفراد مختلفي المشارب، والثقافة تقوم بدور فعال لبلورة نماذج السلوكيات الخاصة بالوسط الحضري، وعلى هذا الوسط أن يكون قادراً على استيعاب مختلف الفئات، وخاصة حديثة العهد بالمدينة. وهذه معرضة للمخاطر إذا كان استقبال الأهالي الجدد لا يجري على منوال معه ذلك. فهي معرضة لأنفصال العلاقات بها، ولتللاشي بنياتها إذا لم تستوعب الثقافة العامة الثقافات الفرعية التي تعيش داخلها"⁽²⁾.

وعموماً يبين لنا الدكتور معن خليل عمر طبيعة الاختلاف بين المجتمعين على النحو التالي⁽³⁾:

⁽¹⁾ محفوظ سماتي، الأمة الجزائرية نشأتها وتطورها. ترجمة محمد صغير بناني وعبد العزيز بوشعيب، منشورات دحلب، الجزائر، 2007، ص 16.

⁽²⁾ نفس المرجع، ص 18.

⁽³⁾ معن خليل، التغير الاجتماعي. دار الشروق لنشر، الأردن، 2004، ص 85.

الجدول رقم: (03)

يمثل أوجه الاختلاف بين المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث

وحدة المقارنة	المجتمعات التقليدية	المجتمعات الحديثة	القيمة
العوامل الثقافية			
المعايير	متجانسة، ذات صفة دينية مقدسة مع بعض الثقافات الفرعية والمضادة.	متغايرة غير متجانسة ذات صفة علمانية مع تعدد الثقافات الفرعية والمضادة.	متجانسة، ذات صفة دينية مقدسة مع بعض الثقافات الفرعية والمضادة.
التوجه الزمني	ذات معنوية جوهرية وتسامح قليل تجاه التنوع والتباين والاختلاف.	معايير لفظية شفوية في جوهرها مع تسامح عال تجاه التوع و الاختلاف.	ذات معنوية جوهرية وتسامح قليل تجاه التنوع والتباين والاختلاف.
التكنولوجي	الحاضر مرتبط بالماضي مرحلة ما قبل التصنيع ومصادر الطاقة تكون بريئة وحيوانية.	الحاضر مرتبط بالمستقبل.	الحاضر مرتبط بالماضي مرحلة ما قبل التصنيع ومصادر الطاقة تكون بريئة وحيوانية.
البناء الاجتماعي			
الدور والمكانة	مكانت محدودة معظمها منسية (موروثة) وأدوار متخصصة قليلة.	عدة مكانت، بعضها منسية والبعض الآخر مكتسبة مع عدة أدوار متخصصة.	مكانت محدودة معظمها منسية (موروثة) وأدوار متخصصة قليلة.
العلاقات الاجتماعية	أولية صرفة وقليل من المجهولية والخاصة وعادة تكون وجهاً لوجه.	ثانوية تتصرف بالمجهولية إضافة إلى اتصالات وسائل الإعلام في علاقاتهم. أي غير مباشرة.	أولية صرفة وقليل من المجهولية والخاصة وعادة تكون وجهاً لوجه.
الضبط الاجتماعي	لغط وقيل وقال عرفي غير رسمي.	شروط رسمية ونسق قانوني.	لغط وقيل وقال عرفي غير رسمي.
الدرج الاجتماعي	تصلب أنماط العدالة الاجتماعية مع قليل من الحراك الاجتماعي.	لينونة أنماط العدالة الاجتماعية مع حراك اجتماعي مقبول.	تصلب أنماط العدالة الاجتماعية مع قليل من الحراك الاجتماعي.
أنماط الفروقات الجنسية	ذكرى صريح وواضح وتكون المرأة فيه منزلية في المنزل.	انهيار النمط الأبوي وتزايد عدد النساء في سوق العمل	ذكرى صريح وواضح وتكون المرأة فيه منزلية في المنزل.
الاقتصاد	مقام على الزراعة مع بعض المصانع المنزليّة.	بني على الصناعات ذات الانتاج الهائل مع تزليد في الأعمال الكتابية والمهنية.	مقام على الزراعة مع بعض المصانع المنزليّة.

<p>صغيرة لا تتدخل في شؤون المجتمع إلا قليلاً.</p> <p>نوية صغيرة مع اهتمام بسيط بوظيفة التنشئة لكنها مستهلكة أكثر من كونها منتجة.</p> <p>يقود رؤية الناس للعالم مع قليل في التوعي ضعيف مع نمو متزايد في العلوم وتنوع الدينين وطائفي.</p> <p>التعليم الأساسي عام وشامل لكل شرائح المجتمع مع نمو في التعليم العالي.</p> <p>معدل واطئ في الولادات والوفيات وتوقع عمر الفرد واطئ.</p> <p>صغيرة وحجم سكاني صغير ومنتشر بين القرى الريفية والمدن الصغيرة.</p>	<p>الحكومة</p> <p>الأسرة</p> <p>الدين</p> <p>التعليم</p> <p>الصحة</p> <p>أنماط التجمعات</p> <p>التغيير الاجتماعي</p>
<p>ممتدة كبيرة الحجم ووسط أولي في التنشئة والانتاج الاقتصادي.</p>	
<p>يقود رؤية الناس للعالم مع قليل في التوعي ضعيف مع نمو متزايد في العلوم وتنوع الدينين وطائفي.</p>	
<p>التعليم رسمية محدودة وخاصة بالصفوة فقط.</p>	
<p>معدل عال في الولادات والوفيات وتوقع عمر الفرد واطئ.</p>	
<p>صغيرة وحجم سكاني كبير ومتركز في المدن الكبيرة.</p>	
<p>بطيء والحدث المتغير يقع عبر الأجيال. سريع والحدث المتغير يقع ضمن الجيل الواحد.</p>	

من خلال الجدول السابق تتجلى مظاهر اختلاف التغيرات الاجتماعية بين المجتمعين الريفي والحضري، ولكن يرى العديد من علماء الاجتماع أن المجتمعات الحديثة اليوم، وخاصة تلك التي تتحكم الرأسمالية في نواحي حياتها، ونقصد بذلك الدول الصناعية، قد تلاشت الفوارق بين مجتمعاتها الريفية والحضرية وهذا ما يؤكده العالم أنطوني جيدنز (Anthony Giddens) بقوله: "... وهكذا يمكن القول أن الرأسمالية قضت على الخطوط الفاصلة بين الريف والمدينة، وهكذا تصبح الزراعة نشاطاً رأسمالياً ممكناً تخضع لتأثير عوامل اجتماعية واقتصادية، وهكذا تتضاءل الفروق في أساليب الحياة الاجتماعية بين الريف والحضر بصورة متزايدة"⁽¹⁾.

⁽¹⁾ أنطوني، غيدنز. "مقدمة نقدية في علم الاجتماع". مرجع سابق، ص 153.

3. التغير الاجتماعي والتمدن بين الدول المتقدمة والنامية: تعد ظاهرة التمدن أو النمو الحضري المتزايد إحدى مظاهر التغير الاجتماعي. ورغم أن المدن قديمة قدم الحضارات الإنسانية المعروفة عبر التاريخ، غير أن قيام المدن الضخمة والصناعية ونموها واتساعها لم يبدأ إلا في النصف الثاني من القرن 19م، وذلك في البلدان المتقدمة كأوروبا الغربية والولايات المتحدة، ويرجع ذلك إلى عوامل كثيرة منها اختفاء النظام الإقطاعي، وظهور طريقة عيش جديدة مع الثورة الصناعية وانتشار الرأسمالية، حيث أدى هذا الوضع الجديد إلى توجه الكثير من الناس إلى المدن بسبب توافر فرص العمل فيها، والحياة الراقية وتتوفر المواصلات ووسائل الاتصال السريعة والترفيه والمغريات، مما ساهم في نموها بشكل متزايد.

وقد ظهرت أولى الدراسات الاجتماعية حول المدن ومشكلاتها وعوامل نموها في مدينة شيكاغو الأمريكية، وهي مدينة كانت في الثلاثينيات من القرن 19م منطقة مهجورة لا توجد حياة فيها، وتحولت بحلول عام 1900 إلى مدينة صناعية، ومركز مالي ضخم يضم مليوني نسمة⁽²⁾، لذلك كانت هذه المدينة ميداناً خصباً لقيام العديد من الدراسات الإمبريقية، قام بها العديد من رواد هذه المدرسة، ومن أهم القضايا السوسيولوجية التي اهتموا بها، الهجرة والجنوح والجريمة، كما ظهر في هذه المدرسة فرع جديد من فروع علم الاجتماع وهو علم الاجتماع الحضري.

وقد أثرت المدينة الصناعية والحديثة بشكل كبير في أنماط العيش وفي القيم، وفي السلوك الإنساني بشكل عام، وهذا ما أكدته دوركايم في أطروحته "حول نمو المجتمع من الاتحاد الميكانيكي (الآلي) إلى الاتحاد العضوي، حيث تتميز الأولى وهي الخاصة بالمجتمعات التقليدية بالتجانس، أما الثانية وهي الخاصة بالمجتمعات المعقّدة أو الصناعية باللاتجانس"⁽¹⁾، وانتشار مظاهر التفاوت الطبقي واللامساواة، وتقتصر فيها العلاقات الشخصية، وتنتشر المادية

⁽¹⁾ علي مانع، مرجع سابق، ص33.

⁽²⁾ أنتوني غيدنز، علم الاجتماع. مرجع سابق، ص598.

والفردانية بشكل كبير، وبهذا تنتشر مظاهر التفكك الاجتماعي، وتضعف مؤسسات الضبط بشكل كبير، مما يتيح المجال أمام انتشار السلوكيات الانحرافية والإجرامية بشكل كبير، خاصة في أوساط الشباب، وهذا ما يؤكده دوركايم مرة أخرى بقوله: "إن بعض أشكال الجريمة هي نتيجة للتغيير الاجتماعي السريع، وما يصاحبه من انهيار الوسائل التقليدية للضبط الاجتماعي. ويدعمه "تارد" بأن الجريمة هي الثمن الذي يجب أن ندفع من أجل نهضتنا واكتشافاتنا"⁽²⁾.

ويرى العديد من علماء الاجتماع أن طبيعة التمدن والنمو الحضري في الدول المتقدمة تختلف عنه بالنسبة للدول النامية من حيث العوامل والانعكاسات، وهنا يطرح عالم الاجتماع أنتوني غيدنз (Anthony Giddens) سؤلاً جوهرياً حول هذه القضية في كتابه "علم الاجتماع" وهو: لماذا تبلغ معدلات التوسيع الحضري في العالم النامي، والعالم الأقل نمواً مستويات أعلى بكثير من مثيلاتها في مناطق أخرى من العالم؟⁽³⁾

هناك اختلاف كبير في درجات التمدن بين الدول المتقدمة والنامية، فإذا كانت المدن الحضرية الكبرى قد ظهرت بداية في الدول المتقدمة، فيعود ذلك إلى ظهور الثورة الصناعية، وانتشار التصنيع، ومن خلال ذلك بدأت المدن الصناعية تكبر بطريقة متدرجة ومنظمة، وبالتالي كان هناك توازن بين النمو السكاني والنمو الصناعي أو الاقتصادي، وهذا التوازن شكل نوعاً من الاستقرار في النمو الحضري بالنسبة للدول المتقدمة.

وفي نفس الوقت كانت معظم الدول النامية والتي تعيش تحت خط الاستواء عبارة عن مستعمرات لدول الشمال تستنزف ثرواتها وتسد حاجيات الثورة الصناعية من المواد الأولية والمواد الخام، كانت تحتوي على بعض المدن الكولoniالية، أما الأهالي فكانوا مشردين، وموزعين على البقاع والقفار. ومع ظهور حركات التحرر والاستقلال لهذه

⁽²⁾ نفس المرجع، ص.33.

⁽³⁾ أنتوني غيدنز، علم الاجتماع. مرجع سابق، ص.598.

الشعوب ونيلها الاستقلال هاجر الأهالي بأعداد كبيرة إلى المدن التي تركها المستعمر وراءه، وكان النزوح في وقت الاستقلال بطريقة فوضوية، وغير منتظمة في ظل مخططات الإسكان بسبب غياب الدولة، وبدأت هذه المدن غير الصناعية تنمو بوتيرة متسرعة وعشوانية بفضل الهجرة المتزايدة من الريف إلى المدينة، والخصوصية العالية وعليه لم يكن النمو الحضري والتمدن في الدول النامية يسير بطريقة تدريجية كما هو الحال بالنسبة للدول المتقدمة بل كان سريعاً، وتضاعف عدد سكان المدن في الدول النامية بعدة مرات مما هو الحال في البلدان المتقدمة، حيث استغرقت عملية التحضر في البلدان المتقدمة حوالي 150 سنة حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن، أما بالنسبة إلى الجزائر كبلد نام فإنه لم تأخذ عملية التحضر فيها سوى مدة تتراوح بين 30 و40 سنة لتصل إلى مستوى يبلغ حوالي 54% هم من سكان الحضر حالياً⁽¹⁾.

زيادة على ذلك تفتقر المدن الحضرية في البلدان النامية إلى قاعدة صناعية توفر للسكان فرص العمل، وتسد حاجياتهم الضرورية مما ساهم في انتشار البطالة، واتساع طبقة السكان الذين يعيشون تحت خط الفقر، وازدادت مشكلات التخلف والتبعية، والمشكلات الاجتماعية، والتناقضات الاجتماعية بين عالم الفقر وعالم الرفاهية، حيث تميل المدن الحضرية في بلدان العالم الثالث إلى أن يكون بها مراكز حضرية حديثة ذات طابع غربي، ودرجة من التطور التجاري والصناعي، محاطة في أطرافها بمدن الأكواخ التي يعيش معظم سكانها حد الكفاف⁽²⁾، هذا التناقض ساهم في انتشار المشاكل الاجتماعية، والسرقات والإجرام والجنوح بمختلف أنواعه.

إن هذه الوضعية الحضرية المتناقضة التي تعيشها الدول النامية وهي خاصة بها، يطلق عليها اسم التمدن المكتظ، أو التحضر الزائد ومعناه "النمو السريع للمناطق الحضرية الذي لم

⁽¹⁾ طاهر محمد بوشلوش، مرجع سابق، ص 121.

⁽²⁾ أنتوني، غينز. "مقدمة نقدية في علم الاجتماع" مرجع سابق.

يوازه نمو في الفرص الاقتصادية والمصالح الاجتماعية⁽³⁾، كما يعني الحالة التي يعيش فيها في أماكن حضرية نسب من سكان بلد ما تفوق إمكانيات النمو الاقتصادي لتلك الأماكن⁽¹⁾

وبالتالي يعد التحضر الزائد مشكلة حضرية تعاني منها الدول النامية على الخصوص، أفرزتها الظروف التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية التي مرت بها هذه البلدان، فظروف نشأة المدن ونموها في البلدان النامية لم تكن مشابهة لنظيرتها في الدول المتقدمة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، وهكذا نمت المدن الكبرى في كثير من البلدان النامية كمراكز حضارية وإدارية وسياسية وثقافية، الأمر الذي جعل نموها الحضري يأخذ شكل التضخم والعجز، فالبلدان النامية كما يشير سوفاني (Sovani) "تتميز بمعدل تحضر عالي يفوق مستوى التصنيع والتنمية فيها"⁽²⁾.

كما ارتبط التحضر الزائد في البلدان النامية بمفهوم "الهيمنة الحضرية"^{*}، حيث تستقطب هذه المدن برامج التنمية على حساب المناطق الأخرى وخاصة المناطق الريفية مما أدى إلى الهجرة الجماعية من الريف إلى المدينة ظهور مجموعة من المشكلات داخل تلك المدن بسبب التباين والاختلاف الثقافي بين سكان المدينة والمهاجرين من الريف، "وهذه الفروق قليلة في مجتمعات الولايات المتحدة والسويد حيث التنمية الاقتصادية والتمدن قطعاً أشواطاً كبيرة إلى درجة أن الفروق الثقافية بين المناطق الريفية والحضرية اختفت تقريباً"⁽³⁾.

⁽³⁾ علي مانع، مرجع سابق، ص68.

⁽¹⁾ أحمد علي حدي، مرجع سابق، ص 18.

⁽²⁾ نفس المرجع، ص 20.

* يشير مفهوم الهيمنة الحضرية إلى استقطاب مركز حضري أو مدينة حضرية (العواصم) في المدن النامية لمختلف برامج التنمية على حساب باقي المدن والقرى الأخرى، وهذا ما يشكل عدم التوازن في التوزيع السكاني والنمو الاقتصادي والصناعي والاجتماعي في تلك البلدان، حيث تنمو المدن المهيمنة على حساب المدن الأخرى.

⁽³⁾ علي مانع، مرجع سابق، ص68.